مؤسسة الشيخ عمي سعيد
ثقافة . تربية . تراث

الأيام الدراسية العلمية:

من الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي [ت 927 هـ / 1521 م]
إلى الشيخ حمو بن موسى عمي سعيد [ت 1425 هـ / 2005 م]

كلمة مدير الشؤون الدينية والأوقاف بولاية غرداية

السيد: محمد بوعوة

نيابة عن معالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف

د. أبو عبد الله غلام الله

ووالي ولاية غرداية

السيد: يحي فهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره، ربنا اغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، وصل اللهم وسلم وبارك على الرحمة المهداة والنعمة المسداة والسراج المنير محمد بن عبد الله وعلى آله وصحابته ومن والاه، أما بعد:

أيها السادة الحضور الأعزاء السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته:

تلبية لدعوة كريمة من إخوة كرام، عاشرناهم لنصف عشرية من السنين، وما وجدنا فيهم سوى الحب والتقدير والاحترام، وهو شعور متبادل، ونحن نعمل على استمراره ودوامه، وباسم السيدين الفاضلين: وزير الشؤون الدينية والأوقاف ووالي ولاية غرداية، ونيابة عنهم سأحاول الإسهام ببعض الكلمات المبعثرات، وأرجو ألا أزعج بها مسامع السادة الحضور الأعزاء.

وقبل البدء لابد من الترحيب بضيفنا المميز فضيلة مفتي سلطنة عمان الشقيقة، سماحة الشيخ الجليل أحمد بن حمد الخليلي حفظه الله ورعاه خدمة للعلم وأهله، ونقول لفضيلته حللتم أهلا وأقمتم سهلا بين أهلكم وذويكم ومرحبا بكم في بلدكم الجزائر التي تفتح ذراعيها لكل أبناء الأمة البررة.

ثم بعد ذلك أتوجه إلى السيد رئيس مؤسسة عمي سعيد وكافة أعضائها المحترمين، سادتي الأفاضل جئتكم محملا برسالة من السيد الدكتور: أبو عبد الله غلام الله وزير الشؤون الدينية والأوقاف راعي هذه الأيام الدراسية والتي من خلالها يقرئكم السلام ويتمنى لكم النجاح والتوفيق في ملتقاكم المبارك هذا. ومعاليه يعتذر بشدة عن عدم تمكنه من حضور هذا اللقاء الميمون وما أقعده عن ذلك سوى كثرة المهام والمشاغل. نتمنى له التوفيق والسداد خدمة للجزائر الحبيبة.

وقد كلفني أن أبلغ تحياتِه وتقديرَه للمنظمين والمشاركين في هذا الملتقى وأن معاليه يُتابع عن بُعد هذا العملَ الجليل منذ البداية ولم ينقطع عن السؤال عنه حتى أينع وأثمر بحمد الله وعونه وهو يتمنى له النجاح والاستمرارية، وأنا مكلف أيضا من قِبل سيادة والي الولاية المجاهد الفاضل السيد: يحي فهيم الحاضرِ معنا هنا تشريفا وتكريما لهذا الملتقى المبارك وهو يبلغكم مدى حرصه واعتزازه بتنظيم مثل هذه الملتقيات الهادفة والهامة على أرض الولاية وفي مثل هذا التاريخ العزيز على قلوبنا جميعا ألا وهو ذكرى الفاتح من نوفمبر 54 ذكرى اندلاع ثورة التحرير التي ننعم اليوم بثمارها، وهو بدوره يتمنى لهذه الأيام الدراسية النجاح والتوفيق وبلوغ الأهداف المسطرة.

أيها السادة الحضور:

وحيث أننا نتناول في هذه الأيام الدراسية المباركة حقبة من تاريخنا المجيد الحافل بالإنجازات في شتى المجالات حسبت أنه يمكن التطرق إلى موضوع الاستفادة من التاريخ وكيفية دراسته واستغلاله في تخطيط تنمية الأمم على مختلف الأصعدة ودوره في تشكيل ثقافات الشعوب وتميزها ودور الطبقة المثقفة في الإصلاح والتجديد والتطوير.

أيها السادة الحضور:

إن المشهور بين الناس أننا نقرأ التاريخ من أجل الاستفادة من عظاته ودروسه وحتى نتمكن من مقارنة أحوالنا بمن سبقنا فنزداد بصيرة وخبرة بما يجب أن نفعله وبما يجب أن نتركه، وهذا المشهور لا شك في صحته وإن كان من يستفيد من عِبر التاريخ دائما قلة فالأمم العظيمة تستخدم التاريخ أداة للتوجيه وأداة للتربية إذ تتخذ من إنجازات الآباء والأجداد ومن سِيَر العظماء محفزات على السمو والعطاء والاستقامة هذا طبعا إذا سلم هذا التاريخ من المبالغة والتهويل والقراءة المنحازة، والمعروف أن المربين والمعلمين والدعاة يختلفون اختلافا واسعا في توظيف ما يعد مصلحة معرفية وأخلاقية فمنهم من يستخدم تلك الحصيلة للبرهنة على فضل السلف وانحطاط الخلف ومنهم من يستخدمها من أجل تعليم الناشئة الإذعان للمجتمع والتكيف مع الظروف الحاضرة وقليلون أولئك الذين يوظفون المستخلصات التاريخية في إيقاظ الوعي وتدعيم الحس النقدي والتحفيز على الوصول إلى شيء جديد وسبب ضآلة هذا النوع من التربية والتعليم يعود إلى أننا حين نقرأ التاريخ لا نتوقع منه أن يساعدنا في فهم واقعنا وتطوير هذا الواقع؛ لماذا؟

لأن الكثير منا منغمس في تلبية الرغبات الآنية أو غارق في هموم تأمين الحاجات الضرورية والبعض الآخر حائر في أمر ه ومستقبله. ومن مهام التاريخ حين يدرس أو يدّرس بطريقة صحيحة أن يساعد دارسيه على الانفصال عن الواقع، وأن ينقذهم من الضياع في معطياته، ولكن التاريخ يدرس الآن على أنه سلسلة التطورات الإيجابية والسلبية التي صنعت الفرق بين مرحلة ومرحلة وبين جيل وجيل، وهذا يتطلب أن ندرس مع التاريخ فلسفة التاريخ وأن نثير الأسئلة حول أسبابه ووقائعه وأحداثه ونبحث عن العلل والمقدمات والجذور ونكتشف سنن الله جل وعلا في الاجتماع البشري ونجلو طبيعة النفس البشرية في إقبالها وإدبارها؛ فالتاريخ حين يدرس بهذه الطريقة يحسّن مستوى البصيرة لدى المتعلمين ويمكّنهم من امتلاك الأدوات التي ينقذون بها الواقع الذي يعيشون فيه عِوضا عن أن ينجرفوا مع تياراته العاتية.

أيها السادة الأفاضل:

في كل مجتمع نوعان من الثقافة؛ ثقافة عليا وثقافة شعبية، أو ثقافة نخبة وثقافة جماهير؛ الثقافة العليا تتكون بطريقة واعية وتكون أكثر دراية ببنيتها العميقة ذلك لأنها تمتلك عن طريق القراءة والكتابة والتأمل والحوار

الرفيع والمقارنة وطرح الأسئلة. أما الثقافة الشعبية فإنها ليست كذلك إنها تتكون بطريقة غير واعية وغير مقصودة حيث يتشربها أبناء المجتمع المعين ويتشبعون بها كما يتنفسون الهواء نقطة ضعفها هي نفسها نقطة قوتها، حيث أن اختراقها من طرف الثقافات الأخرى الأجنبية يكون عسيرا بسبب عشوائيتها وكتامتها ورقابة المجتمع المشددة عليها أما الثقافة العليا والتي يبدأ المجتمع عادة في نشرها من السنة الأولى للتعليم إلى ما لا نهاية، هذه الثقافة هي التي تمثل الأمة أمام الأمم الأخرى، وهذا يجعلها على درجة عالية من المرونة والقدرة على التكيف أي أن كثيرا من الاقتباس والتطوير يأتي عن طريقها وبالتالي فإن تنظيمها وتمثيلها الخارجي لثقافة الأمة يعرضها لأمرين مزعجين:

الأول: سهولة اختراقها، حيث إن طريقة اكتسابها الواعية تفتح الطريق لغزوها وبالتالي تحويرها وتهجينها.

الثاني: جفول الوعي الشعبي من أصحابها والشعور بأنهم يتجاوزون حدودهم إلى درجة يسوغ معها اتهامهم بخيانة الأمة وبيعها للغرباء. ومع أن شيئا من هذا ينطبق فعلا على بعض المثقفين إلا أن المشكلة تكمن في أن الثقافة الشعبية لا تملك المعايير ولا المنهجية ولا الأسس المنطقية التي تمكنها من الحكم الراشد على تصرفات النخبة. مما يجعل موقفها شاعريا أكثر من أن يكون عقلانيا. وهي بدافع الخوف من الانقطاع تلجأ في كسب قضيتها إلى التيارات النخبوية الأكثر محافظة وتقليدية لتقدم لها العون في كبح اندفاع التيارات المتحررة والمتطلعة إلى التحديث، وهذا ما يجعل الثقافة الشعبية عاملا مهما في زيادة الانقسام بين تيارات الثقافة العليا.

ومما سبق يمكن القول: إن تطوير الثقافة الشعبية وتخليصها من العادات والسلوكيات الخاطئة يقع على عاتق الصفوة من رجال الثقافة العليا، لكن من الصعب أن يحصلوا على الاستجابة لمناشداتهم وأطروحاتهم ما داموا موضع شك وريبة من أولئك الذين يحتاجون لخدماتهم.

أيها السادة الأعزاء:

في العالم الإسلامي قامت الثقافات الوطنية المحلية منذ أمد بعيد بإفراغ طاقاتها على الحض والكف في الثقافة الإسلامية المستندة إلى الكتاب والسنة، واجتهادات الفقهاء، وصار من غير الممكن المضي قدما في تطوير أي شأن محلي بعيدا عن مدلولات هذه الثقافة ورمزياتها وتحدياتها. وهذا يعني أن ثقافة النخبة لا تستطيع أن تصبح قوة محركة للناس ما لم تتشرب روح الدين وما لم تلتزم بقطعياته وأطره العامة؛ وستكون النخبة في وهم كبير إذا ظنت أنها تستطيع عمل تغييرات كبرى من غير مساندة حقيقية من طيف واسع من أبناء الأمة.

وقد أثبتت التجارب الكثيرة؛ الإسلامية وغير الإسلامية أن كل حمل يتم خارج رحم الأمة هو أشبه بالحمل الكاذب.

إن تنوع الأنساق المكونة للثقافة يحيل دائما على إمكانية حدوث الصدام والنزاع، كما هو الشأن في التنوع والتعدد. ويبدو أن أشد أنواع التوتر تلك التي تقع بين الثقافة بوصفها هوية وسمات خاصة بالأمة وبين الثقافة بوصفها تعبيرا عن نزعات استهلاكية.

ذلك لأن ثقافة الهوية تتسم بالتعالي عن الانشغال بالواقع، وتنزع نحو المطلق، على حين أن التحضر يزيد وعي الناس نحو مصالحهم ويفتح شهيتهم للاستهلاك، مما يفضي في نهاية المطاف إلى تضخم الثقافة المتعلقة بتسيير الحياة اليومية وتحقيق المنافع الشخصية، وهذا يجعل الناس يشعرون ويظهرون بأنهم أكثر دنيوية، وهو ما يثير حساسية الترميزات العميقة للهوية في الثقافة الإسلامية على وجه الخصوص. وقد صار من الواضح اليوم أن ثقافة ما بعد الحداثة تشجع على انبعاث الحريات في كل أنحاء العالم من خلال عمل غير مقصود وهو المناداة بالنسبية الثقافية والتأكيد على انعدام الأطر والمرجعيات وجعل الحقيقة شيئا تابعا للثقافة وتكمل العولمة المهمة حين تعتمد نظام التجارة أداة أساسية في تسليع كثير من مظاهر الحياة وجعلها أمورا جاهزة للمتاجرة والمساومة وهذا الدفق الهائل من الرموز والصور الاستهلاكية يساعد على انتشار الهويات المقاتلة دفاعا عن الوجود .

وقد لا يكون أمامنا لإدارة الصراع المحتدم في عمق الثقافة على هذا الصعيد إلا أن ندعم الأنشطة الروحية والأدبية والاجتماعية ذات النفع العام وأن نحاول إضفاء المعنى على الأنشطة الدنيوية من خلال الحرص على شرعيتها وشرح ما يمكن أن يجعلها موصولة بالأعمال الأخروية وما لم نفعل ذالك فإننا سنعاني من الانقسام والتمزق في أعماق ثقافتنا، وسنشعر بالكثير من تشتت الجذور وضياع الأهداف من غير أي قدرة على التأبي والممانعة .

إن نقد الواقع يساعدنا على بلورة ملامح الهوية التي تميزنا عن غيرنا، كما تفتح السبيل أمام تطوير هذا الواقع وإخراجه من سياق التداعيات والتحولات العمياء التي تصنعها العولمة بإمكانياتها الهائلة .

أيها السادة الأفاضل :

إننا حين نعدّ الأجيال للتكيف مع سوق العمل عن طريق تلقينهم معلومات تجعل منهم أشخاصا تقنيين تنفيذيين كما يجري الآن فإننا نجعل منهم أشخاصا عاجزين عن المساهمة في إيقاف التدهور الذي تتعرض له مجتمعاتهم، لأن التطور الاجتماعي يتم بطريقة غير واعية، ومن مهام المثقفين على اختلاف درجاتهم أن يساعدوا الأمة على تجاوز الأزمات الكبرى التي تتعرض لها من خلال تراكم الأخطاء والخطايا الصغيرة والكبيرة للأجيال المتعاقبة. ويبدو أنه لا يمكن للمثقفين والمتعلمين عامة القيام بهذا الدور إلا إذا تلقوا العلم

على أنه تحرير وعتق من الاستكانة، للقوى الخارجية الغاشمة، ومن التقليد الأعمى للآباء والأجداد، وإلا إذا تلقوه على أنه وسيلة للتكيف مع الواقع ووسيلة لترشيده وتحسينه أيضا. ومما يساعد في بلوغ هذا العمل إضفاء الطابع الأخلاقي والإنساني على المعرفة والتقنية، فالعلم للعمل ولخدمة الناس ونصحهم وتصحيح أوضاعهم وليس العلم لمجرد العلم.

وعليه، يجب أن نعلّم الناشئة الدور التاريخي الذي قام به العلم في بناء الأمة وتشييد الحضارة العربية والإسلامية، بالإضافة إلى توضيح دور العلم في تكوين الرجال العظام على امتداد التاريخ الإسلامي والعربي وبخاصة الأمة الجزائرية على مر العصور والأحقاب.

وحري بنا أن نطلع الناشئة على تاريخ الحركات الإصلاحية الكبرى وكذا حركات التحرر والممانعة وعلى الأسباب التي تساعد على نشوء الأفكار العظيمة ذات الطبيعة الاختراقية إذا ما كنا نريد للتاريخ وللعلم أن يساهم في تجديد الأمة ودفعها نحو الأمام.

أيها السادة الكرام:

إننا في الحقيقة لا نستطيع أن نفهم أي علم على نحو عميق إلا إذا فهمنا تاريخه وخارطة تكوينه وتحولاته، ومن المؤسف أننا لا نبذل جهدا يذكر في شرح كيفية تحدي الجديد من التقدم، وليس لدينا أي جامعة أو كلية أو معهد يقدم شيئا متميزا في تاريخ أي علم من العلوم.

إن التجديد المعرفي والاجتماعي سيكون صعبا من غير الاطّلاع على الأطوار السابقة لعلومنا وأوضاعنا، إذ أننا من خلال قراءة تاريخ العلوم نتعرف على بواعث الاجتهاد وبيئاته والعقبات التي تواجهه، كما أننا ننمي لدينا حاسة المقارنة، ونكتسب المزيد من المرونة الذهنية، والمزيد من القدرة على رؤية الأشياء من زوايا مختلفة، وقد صدق من قال: " إذا أردت أن تعرف المستقبل فانظر إلى الماضي". إذ تمكنُنا معرفة الماضي من اكتشاف السنن التي تجسد العلاقة بين ما فات وبين ما هو آت، ومن خلال هذا نكتشف آفاقا جديدة للتطوير، ونفتح حقولا جديدة للممارسة، وقد آن الأوان للعمل على استدراك بعض ما فات، والعمل على توظيف التاريخ من أجل تغيير نوعية الحياة في مجتمعاتنا.

لأن الأمم لا يمكنها أن تنهض بغير تاريخ، وأن تقوم بغير ذاكرة، والتاريخ بالنسبة لنا نحن العرب والمسلمين أشد خطورة في حياتنا من التاريخ في حياة أية أمة أخرى فهو في حقيقة الأمر حركة الأمة التي رباها محمد ﷺ فسلمت له وأطاعته والتزمت بما أمر ونهى حتى صارت الرسالة واقعا عمليا تطبيقيا صنع على عين رسول الله ﷺ ثم حمله من بعده صحابته الأكرمون الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه فحفظوا الرسالة وبلغوها

على نفس المنهج وتتابعت الأجيال جيلا بعد جيل إلى يوم الناس هذا، ونختم كلامنا بالقول: إنه أصبح من الواجب على كل من يستطيع تصحيح تاريخ المسلمين في مختلف أطواره وأحقابه أن يعتبر ذالك من أفضل العبادات وأن يبادر إليه وأن يجتهد فيه ما استطاع لكي يهيئ أمام شباب الأمة المثال الصالح عن سلفهم؛ فيقتدون بهم ويجددون العهد معهم ويصلحون سيرهم بصلاح سيرة الخلف.

وفي النهاية نعلن باسم السيدين الكريمين: وزيرِ الشؤون الدينية والأوقاف، ووالي ولاية غرداية عن الافتتاح الرسمي لفعاليات هذه الأيام الدراسية المباركة.

الحمد لله الذي علمنا ما لم نكن نعلم وكان فضل الله علينا عظيما؛ شكرا على صبركم وحسن إصغائكم فإن أصبت فبتوفيق من الله ورسوله وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان والحمد لله رب العالمين.